أمل تحقيق الشفاء

«إطلاق التسميات الوصفية لا يقدّم الفهم السببي».

روبرت ل. تايلور Robert L. Taylor، العقل أو الجسم Mind or Boedy.

رأينا في الفصل الأول الاستعارة في صميم المعنى الحرفي لمصطلح غسيل الدماغ: استخدام الماء في التطهير والتنقية، ونأتي الآن على معنى مجازي آخر وثيق الصلة، ألا وهو الشفاء؛ فمنذ أن ولدت الكلمة أطلقت تشبيهات بين غسيل الدماغ ومعالجة العقول المريضة؛ فعلى سبيل المثال، أجرى إدوارد هنتر Edward Hunter مقارنة في وقت مبكر في كتابه **غسيل الدماغ في الصين الشيوعية** Brain-Washing in Red China، عندما قابل الطالب الصيني تشي سزي شين Chi Sze-chen الذي خضع لعملية إصلاح التفكير، إذ حفَّزت توصيفات تشي Chi ذكريات هنتر Hunter عن (أحد أحدث المصحَّات) في أمريكا، حيث زار هنتر Hunter صديقًا مريضًا فيها، فيتذكر بصفة خاصة قول أحد الأطباء النفسيين:

« لقد حقق للتو نصرًا مجيدًا (الصراع على دماغ إنسان)، وشعر أنه أصبح قادرًا على التوصية بتخريج مريضه. فقد كان ثمة مشهد عائلي مؤلم في طفولة هذا الرجل، وقد عرف عنه الطبيب، ولكن ليس عن طريق المريض نفسه. وما لم يكن الرجل قادرًا على وضع حادثته غير السعيدة في إطارها الصحيح، لتتطابق هذه الأجزاء الفسيفسائية العقلية معًا، وتتجمع في كل موحد، فلا يمكن عَدُّ شفائه آمنًا، ولا يمكن أن يفعل أحد آخر ذلك بدلًا عنه؛ فمن ثم كان عليه فعل ذلك بصورة تطوعية، مع أنه لم يكن هناك سبب وجيه لتكتُّم المريض؛ فقد ذكر تفاصيل أكثر كشفًا بكثير. يتأتى (شفاؤه) فقط بالاعتراف الصريح بالحقائق: أي بأن (يكون صريحًا)، بعملية «إعادة رسم شكل العقل». كانت هذه كلها مصطلحات استخدمها أيضًا الطالب الصيني في أثناء مقابلتنا، فقد كانت المشاعر التي سيطرت علي عندما كنت أتحدث مع الطبيب النفسي في تلك المؤسسة الأكثر حداثة، هي نفسها التي شعرت بها حين كنت أصغي إلى قصة تشي Chi: الشعور المزعج نفسه عند الخوض في حقول خطرة. كانت تجارب

تشي Chi في شمال الصين مشابهة لتجارب المرضى في المؤسسة الأمريكية، وبدا الأمر كما لو أن أكثر مستشفيات الأمراض العقلية تقدمًا مع فريقها من الأطباء النفسيين قد توقفت عن معالجة المجانين، وبدأت بمعالجة العقلاء فقط، من دون تغيير المعالجة».

الأطباء والشياطين

سلط العديد من المعلقين الضوء على هذا الرابط بين طرائق (الشفاء النفسي) في علم النفس، والعلاج النفسي، والطب النفسي والطرائق القسرية في غسيل الدماغ وسلفه، التعذيب. يحدث هذا الترابط أيضًا بالطريق المعاكس: قد يعمد أولئك الذين يطبقون الإقناع القسري إلى تسويغ تصرفاتهم باستعمال نموذج طبي، يصفون فيه الإكراه الذي يقومون به بأنه مفيد (للمريض) (أي الضحية). قد تختلط لغة (الشفاء) و(الصحة) في نماذج أخرى، وأحد النماذج الشائعة هي لغة (التوبة) و(الخطيئة) في التحول الديني الإنجيلي، حيث يكون الهدف هو إنقاذ روح المريض/الضحية. نموذج آخر هو لغة المعركة الممثلة في الاقتباس أعلاه، التي يقاتل فيها المعالِج/غاسل الدماغ قوى العدو (الأفكارَ المذهبية المنافسة) التي سيطرت على المريض/الضحية أو أفسدته. الهدف هنا هو تحرير الشخص من تلك العقائد الباطلة، وفي الواقع اتباع قول سانت جون St John: «ستعلمون الحقيقة، وستجعلكم الحقيقة أحرارًا» (يوحنا 8: 32). وغني عن القول، أن الحقيقة مورد يتولى غاسل الدماغ احتكاره.

يقدِّم جورج أورويل George Orwell الذي يدرك على الدوام إدراكًا فائقًا قوة اللغة، حالات واضحة عن الكيفية التي يبين فيها كيف يمكن تحييد هذه النماذج (الفاضلة) (الشفاء، الإنقاذ، التحرير) من قبل مسيء استخدام السلطة؛ فمثلًا في رواية أربع وثمانون وتسع مئة وألف يستخدم رجل التعذيب أوبرين O'Brien مع ونستون سميث Winston Smith نموذجًا طبيًّا صريحًا في وصف أهداف الحزب تجاه ونستون Winston؛ «هل أخبرك لماذا جئنا بك إلى هنا؟ كي نعالجك! لنجعلك عاقلًا! هل ستفهم، يا ونستون Winston، أنه ما من أحد حضر إلى هذا المكان وغادره من دون أن يشفى؟ لسنا مهتمين بتلك الجرائم الغبية التي ارتكبتها. الحزب ليس مهتمًّا بالتصرف العلني: التفكير هو كل ما يهمنا، ليس مسعانا فقط تدمير أعدائنا؛ نحن نغيرهم».

يستخدم النموذج الطبي نفسه بصورة صريحة في الشيوعية الصينية التي انبثق منها مصطلح (غسيل الدماغ) للمرة الأولى، فيصف إدوارد هنتر Edward Hunter مسرحية أطلق عليها

مسألة تفكير، أنتجت أولًا للجمهور الصيني عام 1949م، ولم تكن موجهة للمستمعين الأجانب، ينقل فيها إصلاح التفكير إلى الحياة بصورة مسرحية. يختلط في هذه المسرحية النموذج الطبي للمذاهب الفكرية البديلة التي تعد سمومًا عقلية، مع النموذج الإنجيلي لإصلاح التفكير بوصفهما آلية تحوُّل؛ فمثلًا تعطي الآنسة تساو قائدة مجموعة بعض الملاحظات:

«لقد هُزم الرجعيون، ويحصل الأشخاص المرضى الآن على العلاج؛ وإذا لم يعترفوا على الرغم من ذلك، وإذا ظلوا غير صريحين حول ماضيهم خلال مدة العلاج هذه، وإذا استمروا لا يريدون إنقاذ أنفسهم، والندم على أخطائهم، فلا يمكنهم لوم أي شخص آخر».

هنتر Hunter، غسيل الدماغ في الصين الشيوعية.

قد يرغب أولئك الذي يستخدمون طرائق التأثير الشمولي في تعزيز مصداقيتهم بتبني واحد أو أكثر من هذه النماذج الفاضلة؛ لكن، قد يجادل أحدهم أن هذا بالتأكيد مختلف عن الشفاء الحقيقي (أو الإنقاذ، أو التحرير). يأخذ اختصاصيو الصحة العقلية -في الغالبية العظمى من الحالات- واجبهم في تقديم العناية على محمل كبير من الجد، ويبذلون قصارى جهدهم لمساعدة مرضاهم مستخدمين أفضل العلاجات المتوافرة، لكن يمكن أن يكون للنظام الاجتماعي الذي يتعامل مع المرضى عقليًّا سلطة هائلة عليهم؛ إن هذه القدرة على الإكراه هي التي قادت إلى المزاعم بغسيل الدماغ.

تحدي الأطباء النفسيين

يواجه الأطباء دائمًا نقدًا من زملائهم في المهنة؛ هناك بعض الأعضاء في مهن الصحة العقلية الذين عندما يواجهون بسؤال مايكل فوكولت Michel Foucault البلاغي: «هل من المفاجئ أن تشبه السجون المصانع، والمدارس، والثكنات، والمستشفيات التي تشبه جميعها السجون؟»[1]، يجيبون: «على الإطلاق». بالنسبة إلى فوكولت Foucault والمناهضين للأطباء النفسيين في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين مثل ر.د. لينج R.D. Laing وتوماس زاز Thomas Szasz، فإن آليات تعريف الشخص على أنه مريض عقليًّا لا تتعلق في المقام الأول بالشفاء؛ بل هي بالسلطة التي تمارسها الدولة ضد أولئك الأفراد الذين يتصرفون بطرائق منحرفة اجتماعيًّا[2]، وحجة هؤلاء النقاد هي أن العيش في المجتمع يفرض ضغوطًا على بعض الأشخاص ولا يستطيعون التكيف معها، وهو ما يؤدي بهم إلى التصرف بطرائق مفجعة بالنسبة إليهم وإلى الآخرين.

يذهب لينج Laing بعيدًا حتى إلى تعريف السلوك الانفصامي بأنه «إستراتيجية خاصة يخترعها الشخص لكي يعيش في ظرف غير قابل للعيش فيه»[3]. من الناحية المثالية، قد يعني (شفاء) مثل هؤلاء الأشخاص إصلاح المجتمع لإزالة الضغوط المؤذية؛ لكن من الأسهل تعريف المصابين بأنهم منحرفون، أو مجانين، أو مرضى. إن هذه اللغة تصفهم بأنهم (لا أناس)، وهذا -كما تعلمنا من روبرت ليفتون Robert Lifton (في الفصل الأول)- يعد خطوة خطِرة، ولا يقتصر الأمر على إمكانية حرمان هؤلاء (اللا أناس) حقوقهم، ووضعهم في مصحات و/أو معاملتهم بقسوة (نظريًّا لمصلحتهم الخاصة، لكن أساسًا لراحة المجتمع)، بل إن الحاجة إلى النقاء في المجموعة الكبرى من الأشخاص (الطبيعيين) تجبر على إزالتهم، ويصوغها توماس زاز Thomas Szasz بقوله:

> **«يعتقد اليوم على نطاق واسع أنه كما يعاني بعض الناس أمراضَ الكبد أو الكلى، يعاني آخرون أمراضَ العقل أو الشخصية؛ هؤلاء الأشخاص المبتلون بهذه (الأمراض العقلية) أدنى نفسيًّا واجتماعيًّا من أولئك غير المبتلين بها؛ و(المرضى عقليًّا) نظرًا إلى أن عجزهم المفترض عن (معرفة ما هو في أفضل مصلحتهم)، يجب أن يُعتنى بهم من قبل أسرهم أو الدولة، حتى لو تطلبت هذه الرعاية تدخلات تفرض عليهم ضد رغبتهم أو حبسهم في مستشفى الأمراض العقلية. عُدَّ هذا النظام الكلي من المفاهيم المتشابكة والمعتقدات والممارسات، باطلًا وغير أخلاقي».**
>
> زاز، **صناعة الجنون**، Szaz, The Manufacturing of Madness.

لا يقول زاز Szasz إن السلوك (الغريب) غير موجود، ولا يقول حتى إن الناس ذوي السلوك الغريب قد لا يريدون أو يحتاجون إلى المساعدة، أو يسعون كما فعل ماكبث Macbeth في مسرحية شكسبير Shakespeare، «ننتزع من الذاكرة الحزن المتجذر، ونمحي المشكلات المكتوبة للدماغ»[4]، بل كان حريصًا على توضيح أن نقده ليس موجهًا إلى العلاج النفسي أو (الطب النفسي التعاقدي) الذي يدخل فيه المريض بحريته في عقد، ويدفع إلى المعالج مباشرة لقاء خدمات الصحة العقلية، وحيث يوجد عقوبات على المعالج الذي يستخدم القوة أو الخداع، بل يستهدف زاز Szasz بدلًا من ذلك ما أسماه (الطب النفسي المؤسسي) الذي يكون فيه الطبيب النفسي المؤسسي موظفًا بيروقراطيًّا، يتقاضى لقاء خدماته من مؤسسة خاصة أو حكومية (وليس من الفرد الذي هو عميله ظاهريًّا)؛ أهم خاصية اجتماعية لها هي استخدام القوة والاحتيال. إنه يعترض أساسًا على الإكراه، والافتراض بأن السلوك غير العادي للأشخاص مسوغ بما يكفي لانتزاع حرياتهم.

وعلَّق لينج Laing: «قد يشكل طيار قاذفة القنابل العاقل تمامًا تهديدًا أعظم على بقاء الأنواع من مريض مصاب بالانفصام أدخل إلى المستشفى وهو يتوهم أن القنبلة بداخله».

أثار روبن دوز Robin Dawes الذي كتب بعد ربع قرن مخاوف مماثلة في كتابه **بيت من ورق** الذي يجادل فيه أن أكثر مما يجب من علم النفس والعلاج النفسي تعتمد على أسس مشكوك فيها علميًّا. ناقش الآلية التي تمنح من خلالها جمعية علم النفس الأمريكية التراخيص لأطبائها الممارسين، ولاحظ أن:

> **«الأساتذة وعلماء النفس (التنظيميين) أو (الصناعيين) الذين يعملون لمصلحة منظمات تجارية أو وحدات حكومية مستثنون، والأساس المنطقي لذلك هو أن هؤلاء الناس لا يعملون لمصلحة عملاء منفردين بصفتهم الخاصة. يتعارض هذا التصور مع النظام الأخلاقي لجمعية علم النفس الأمريكية التي تنص على أن عالم النفس يجب أن يعمل لمصلحة الفرد الذي يقوِّم أو يعالج».**
>
> دوز Dawes، **بيت من ورق** House of Cards

مثل زاز، يشير دوز إلى أن موظفي الدولة هؤلاء يمكن أن تكون لهم سلطة قوية على أولئك الذين يقوِّمونهم إلى حدود، وحتى إلى سلب وجودهم، كما هي الحال على سبيل المثال عندما يقوِّمون القتلة المدانين. ولاحظ دوز أنه «لا يكاد يمكن وصف علماء النفس الذين يقررون أن القتلة يجب أن يعدموا لأنهم (غير قابلين للإصلاح)، بأنهم يعملون لأجل أفضل مصلحة لهؤلاء الناس»، فهم يعملون لمصلحة مجتمع يفضل الاستئصال (ماديًّا بعقوبة الإعدام أو اجتماعيًّا عن طريق السجن) على إعادة تأهيل هؤلاء الأفراد الذين ينكرون- كما أنكر هتلر Hitler على اليهود- أي إمكانية بأنه يمكن إصلاحهم، وهذا يذكرنا بالمواقف الشمولية التي نوقشت في الفصل الأول.

يقع على الطرف المقابل من الطيف مقابل نظريات (القوة الاجتماعية) لمعارضي الأطباء النفسيين النموذج الأحيائي/الطبي للطب النفسي الذي يتمتع بقوة هذه الأيام، والذي يقول إن الأمراض العقلية هي فرع من الأمراض الجسمية[5]. هذا صحيح دون شك في أكثر من 300 حالة حدَّدها الكتيب الرسمي للمتخصصين في الطب النفسي الأمريكيين، المنتَقَد بشدة، الدليل التشخيصي والإحصائي، والدليل الأوروبي المكافئ في الطب النفسي، والتصنيف الإحصائي الدولي للأمراض والمشكلات الصحية المتعلقة بها، لمنظمة الصحة العالمية[6]. ووفق ما يلاحظ

دوز Dawes، فمثل الأمراض الطبية، بعض الحالات الواردة في الدليل التشخيصي والإحصائي لها سبب مفهوم جدًّا نسبيًّا، وطبيعة فيزيولوجية، ومجموعة من السلوكات (الأعراض) المرافقة، ومسار محدد مع مرور الوقت. إن الأعراض الفصامية التي ترافق أحيانًا اضطراب الذئبة الحُمامية المناعي هي من هذا النوع.

لكن النسخة الحالية من الدليل التشخيصي والإحصائي يتضمن تشخيصات تراوح بين المألوفة (مثل الاكتئاب، والفصام) والحالات الغريبة بصورة صريحة (مثل اضطراب الجسم المشوَّه الذي يطالب فيه المريض بالجراحة لإزالة الأجزاء المعافاة من جسمه). ثبت أن بعض (الاضطرابات) - مثل اضطراب القراءة، واضطراب التصرف، واضطرابات الشخصية- مثيرة للجدل بصورة كبيرة. قد يعترض كثير من آباء الأطفال المصابين بعسر القراءة بشدة على فكرة أن أبناءهم يجب أن يشخصوا تشخيصًا نفسيًّا، وكثير من المعلقين على اضطرابات الشخصية قلقون من عدِّ شخصية كاملة مرضًا؛ فعلى سبيل المثال في اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع (ونسخته عند اليافعين: اضطراب التصرف)، من الصعب تصور ما الذي سيكون الشخص عليه من دون وجود (الاضطراب)؛ لكن الحالة ليست كذلك في هلوسات الفصام على سبيل المثال. تتضمن معايير تشخيص اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع الخداع، والإخفاق في التخطيط المسبق، والعدوانية، وانعدام المسؤولية، وانعدام تأنيب الضمير. على الرغم من أن اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع يُشخص بناءً على السلوك، وهذه المصطلحات تقنيًّا هي توصيفات للسلوك، إلا أنها تبدو لكثير من الناس أشبه بصفات شخصية، وهي صفات بغيضة جدًّا. يوسم الشخص الذي يعاني اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع أحيانًا بأنه معتل نفسيًّا (كثيرًا ما يبدو أنهم لا يعانون شيئًا، إلى أن يلاحقهم القانون)، على الرغم من أن الاعتلال النفسي مصطلح «يعرِّف بمجموعة من كل من الصفات الشخصية والسلوكات المنحرفة اجتماعيًّا»[7]، بمعنى آخر يمكن تعريف ذي الاعتلال النفسي بأنه ذو شخصية فظة، لا ترحم، ومخادعة، وهو كذلك يتصرف تصرفًا سيئًا. ليس واضحًا على الإطلاق إلى أي مدى يمكن أن ترتبط الفظاظة وانعدام الرحمة والخداع بمشكلات في وظيفة الدماغ، أو أن تعالج بالأدوية أو الأساليب الأخرى، مثلما يتضمنه النموذج الطبي الحيوي. إن معالجة شخص مصاب باضطراب الشخصية من دون موافقته (بالقوة أو الاحتيال)، يقترب في خطورته من تغيير الشخصية بالإكراه المترافق مع غسيل الدماغ.

يعترض بعض المعلقين على التمييز الصارم بين السلامة العقلية والجنون، المتضمنَين في كل من نموذج القوة الاجتماعية والنموذج الطبي الحيوي للمرض العقلي[8]، وتحدى آخرون جدوى الاستخدام القسري في المعالجة مثل خزع الفص الجبهي lobotomy[9]، أو فاعلية العلاج الدوائي (المعالجة بالأدوية)[10]، أو العلاج النفسي[11]، ثمة مجموعة من النقاد في صفوف حركة الصحة العقلية الحديثة، لكنها تزدهر أكثر من أي وقت مضى، فما سبب ذلك؟ يضع كثير من الناس اللوم بقوة على (السلطة)، وهي أحد أسلحة التأثير عند روبرت شيالديني Robert Cialdini التي وصفت في الفصل الثالث، وهذا لا يعني القول بأن محترفي الصحة العقلية يريدون الضغط على عملائهم أو أن يخدعوهم، فإن كانت قلة منهم محتالين، فإن الغالبية العظمى منهم ذوو نوايا حسنة.

ولكن، لا يلزم أن تمارس تقنيات التأثير بإضمار الخداع: فقد تكون السلطات صادقة (طبيب يصادق على حبوب دوائية)، وقد تكون كاذبة (ممثل يكون له دور طبيب في مسلسل تلفازي شهير يصادق على حبوب دوائية). ينظر المتخصصون في الصحة العقلية إلى سلطتهم على أنها أصيلة، توافق عليها الدولة وتدعمها سنوات من التدريب، ونحن نقبل سلطتهم- ونقتبس من دوز Dawes مرة أخرى- لأننا «كنا نسمع باستمرار أنهم خبراء، لأننا عرضة لقبول ما يقول الأشخاص الذين يدعون أنهم سلطات»، يتطلب منا فهم السبب في أن السلطة سلاح تأثير قوي أن نزور مرة أخرى علم النفس الاجتماعي.

قوة السلطة

«هذه رغبتي، وأمري، وإرادتي سبب كاف».

جوفينال Juvenal, Satire.

بدأت دراسة السلطة في علم النفس الاجتماعي في وقت مبكر، لأسباب ليس أقلها أن كثيرًا من الأسماء الكبيرة في هذا الفرع المعرفي قد انتقلت إلى أمريكا هربًا من نظام سلطوي-ألمانيا النازية. اقترح ثيودور أدورنو Theodor Adorno وزملاؤه فكرة (الشخصية السلطوية) (التي تقاس بمقياس أدورنو Adorno للفاشية واختصارًا F): ويمثلها الشخص الذي يحابي بصورة مفرطة أولئك الموجودين في السلطة ويعادي على نحو غير عادي أي شخص ليس في المجموعة نفسها، ويحاجُّون بأن الانضباط الصارم المفرط من قبل الآباء يجعل بعض الأطفال يوجهون العدوانية الطبيعية نحو أهداف أضعف بدلًا من إظهارها مباشرة بوجه الآباء. عند نمو هؤلاء

الأطفـال، يصبحون نفسـيًّا عرضة للخضوع للسـلطة التي يرونها ممثلة عـن الآباء، ويحتاجون إلى أن يكونوا ضمن نظام تراتبي هرمي، ويستمتعون بممارسة السلطة على الآخرين. على الرغم من أن البحوث اللاحقة ألقت ظلالًا من الشـك حول ما الذي يقيسـه مقياس الفاشـية F في الواقع[12]، فإن مفهوم السلطوية ظل مؤثرًا.

وسـعت بحـوث ملتـون روكيش Milton Rokeach أنـواع الشـخصية إلـى مدى أبعد مـن أتباع المذاهـب الفكريـة للجناح اليميني (الحرف F في المقياس يشـير إلى الفاشـية fascism)، ليس فقط أن الأفراد السلطويين بصورة كبيرة يميلون إلى تسجيل درجات عالية في تصنيفات الحزم والتحيـز، بـل إنهـم أيضًا يفعلون ذلك بصرف النظر عن مذهبهم الفكـري، علمانيًّا كان أو دينيًّا. الأب سيمون Simon الذي تكلمنا عن تحوله إلى الشيوعية في الفصل الأول، وصفه روبرت ليفتون Robert Lifton بأنه شـخصية سـلطوية، ويقول روكيش Rokeach إن المهم هو نوع المعتقد وبنيته، وليس محتواه المحدد[13].

مـا لبثت نظرية الشـخصية السـلطوية للسـلطويين أن قُوبلت بالتحدي، ويحاجـج النقاد أنه بربطهـا التحيز «بديناميكيات الشـخصية الفردية، فإنها تقوض مـن أهمية المواقف الاجتماعية السـائدة في تشـكيل مواقف الناس»[14]، وأنها تتجاهل العوامل الاجتماعية الثقافية والتاريخية التي توثر في التحيز، وأنها- بوصفها نظرية في الفروق الفردية- قد أخفقت في تفسير الانتشار الكبير للاستبداد في مجتمعات مثل ألمانيا النازية. علاوة على ذلك، إذا كانت بعض الشخصيات فقط عرضـة للطاعـة العميـاء، فإن أي شـخص محظوظ بما يكفي للعيش في بلد حـر حرية صحيحة، والذي يشجع الآباء المتحررين، يمكنه- على ما يفترض- أن ينحي أي تهديد للطغاة في منطقته.

وهـذا مـا اعتقد به كثير من النـاس فعـلًا، إلى أن وصل سـتانلي ميلغـرام Stanley Milgram إلى قاعة الشـهرة في علم النفس، فقد تحدى في سلسـلة من التجارب الشهيرة الفكرة القائلة أن أشخاصًا معينين فقط عرضة للسلطة، ناقلًا التركيز من الشخصية إلى السلوك، ومبينًا أنه حتى الطـلاب الأمريكيون المتعلمون على مسـتوى رفيع ذوو العقول المتحـررة (المناقضون التقليديون للألمـان المحبيـن للسـلطة) قد يوافقون على تطبيق مسـتويات خطِرة مـن الصدمات الكهربائية علـى الناس، إذا أعطاهـم عالم النفس التعليمـات لفعل ذلك، وقـد تضمنت هـذه التجارب التي كانـت ظاهريًّـا عـن التعلـم خداع شـخص ليعتقد أنه يسـبب صدمـات كهربائية لمتطـوع آخر، هو (المتعلـم) (هـو في الواقع شـريك في التجربـة يتظاهر بأنـه تلقى الصدمات). يقدم الشـخص

اختبـار تعلـم للشـريك، وتُعطى الصدمات عندما يرتكب الشـريك خطأً (مرتبًا له مسـبقًا)، فإذا تردد الأشخاص، يعطي الباحث أوامره لهم بالاستمرار.

وفق أسلحة التأثير عند روبرت شيالديني Robert Cialdini التي نوقشت في الفصل الثالث، يمكننا ملاحظة أن ميلغرام Milgram لم يكن يستخدم السلطة فقط، ولكن الالتزام والثبات كذلك. مستوى الصدمة الكهربائية المفترضة كان في البداية منخفضًا جدًّا؛ وازداد بدرجات إلى مستويات خطِرة مع تقدم التجربة؛ لذا فالالتزام المبدئي بالمشاركة في التجربة، وحتى التقدم في المستويات الأولى القليلة من الصدمة كان أمرًا سهلًا نسبيًّا، لكن في كل مرة يوافق فيها المشارك على زيادة مستوى الصدمة، فإنه يسقط بصورة أعمق في مصيدة الالتزام والثبات، وهو ما يزيد من صعوبة الرفض. يعـد هذا النـوع من التَّصيُّد طريقة محببـة لخبراء التأثير، لهذا السـبب كثيرًا ما يدرَّب الجنود المعرَّضون لتهديد الوقوع في الأسر والاستجواب على إعطاء أسمائهم، ورتبهم، وأرقامهم المتسلسلة، ولا شيء آخر.

طلب ميلغرام Milgram من الأطباء النفسيين، وطلاب الدراسات العليا، والهيئة التدريسية فـي العلوم السـلوكية، وطلاب السـنة الثانيـة، والبالغين من الطبقة المتوسـطة[15]، أن يتوقعوا عدد الأشـخاص الذيـن سـيطيعون تمامًـا ويعطـون أعلى صدمـة ممكنة يحتمـل أن تكون قاتلـة، فكانت الإجابات جميعها حول 1–2 في المئة، وهو تخمين ليس سـيئًا لعدد السـاديين في عموم السـكان. لسـوء الطالـع، لـم يكـن ميلغرام يدرس السـادية. فـي الدراسـة الفعلية، كان مـا يصل إلـى ثلثي الأشـخاص مطيعين تمامًا، وبدلًا من أن تكون مشـكلات الطاعة العمياء مقتصرة على أقلية ذات نوع (خطأ) من الشخصية، فإن مليغرام Milgram يحاجج:

> **«ربما يكون هذا هو الدرس الأكثر جوهرية في دراستنا: الناس العاديون الذين يقومون ببساطة بوظائفهم، ومن دون أي عدائية خاصة من جانبهم، يمكن أن يصبحوا عملاء في عملية تدمير مرعبة. علاوة على ذلك، حتى عندما تصبح التأثيرات المدمرة لأعمالهم واضحة بجلاء، ويطلب منهم القيام بأعمال متنافرة مع المعايير الأساسية للأخلاق، فإن عددًا قليلًا نسبيًّا من الناس لديهم الموارد اللازمة لمقاومة السلطة».**
>
> ميلغرام، **الخضوع للسلطة** Milgram, Obedience to Authority.

يدور تفسـير ميلغرام Milgram لنتائجه حول ما أسـماه (التحول العاملي). تصور الإنسـان (والعضويـات الأخـرى) على أنه قـادر على العمل في حالتين: (اسـتقلالي) و(عملائي)، فعندما

يعمل البشر باستقلالية، يكونون أنانيين وأحرارًا؛ أفعالهم تحت سيطرتهم ويخدمون حاجاتهم، وإذا كان المجتمع يتكون كليًّا من مثل هذه الوحدات المستقلة، فلربما تقترب الحياة من رؤية توماس هوبز Thomas Hobbes الشهيرة لدولة الطبيعة: «انعزالية، وفقيرة، ومقرفة، وبهيمية، وقصيرة»[16]. يجادل ميلغرام Milgram أن فعل التعايش ذاته في المنطقة نفسها يتطلب من مثل هذه الوحدات أن تحد من سلوكها الأناني الذاتي؛ يجب عليها أن تتعلم -على سبيل المثال- ألا يهاجم بعضها بعضًا، ويعتقد أن هذا الكبت يكمن وراءه الضمير الفردي.

يعيش البشر في مجموعات معقدة جدًّا، يستمدون منها فوائد مهمة للبقاء، وحالما يصبحون جزءًا من نظام اجتماعي معقد، يمكنهم مجتمعين تحقيق أكثر بكثير مما يحققونه منفردين. تميل الأنظمة الاجتماعية إلى تنظيم نفسها في تسلسل هرمي؛ لأن ذلك يسمح لعدد من الأعضاء بتنسيق أعمالهم من قبل عضو أعلى في التسلسل الهرمي، لكن لا يمكن أن يكون هذا التنسيق (السيطرة) فاعلًا فقط إلا إذا ضحى كل عضو بجزء من استقلاله الشخصي؛ لأنه بخلاف ذلك قد يتعارض التحكم الفردي مع السيطرة النظامية. سيكون ذلك غير مريح للفرد، وسيُضرُّ بكفاءة المجموعة، لذلك فإن التحول في السلوك والموقف- التحول العاملي- أمر مطلوب، كما بيَّنه ميلغرام Milgram بالتحديد؛ فالشخص الذي يدخل في نظام سلطة لا يعود ينظر إلى نفسه متصرفًا بناءً على أهدافه الخاصة، بل يصبح يرى نفسه عاملًا في تنفيذ رغبات شخص آخر. يأتي مثال على التفكير العاملي من عالم الصواريخ فيرنر فون براون Wernher von Braun، وهو واحد من عدة علماء نازيين ذهبوا للعمل لحساب الأمريكيين بعد الحرب العالمية الثانية، كما يسخر توم لهرر Tom Lehrer:

«بعد أن تصبح الصواريخ في الأعلى، من يهمه مكان سقوطها؟».

«هذا ليس قسمي»، يقول فيرنر فون براون Wernher von Braun.

لهرر Lehrer، فيرنر فون براون Wernher von Braun.

شهدت الدول الغربية في العقود القليلة السابقة ميلًا نحو تحدي السلطات التقليدية، فالأطباء، والكهنة، وعمال القطاع العام، والسياسيون، قد رأوا جميعًا أن أرصدتهم قد هبطت إلى حد ما. مع انكماش مجالي الدين والقطاع العام، وامتداد مخالب حركة العصر الجديد إلى الطب، تضاءلت قوة السلطات التقليدية، ومع ذلك فإن السلطة، مع كونها مفيدة جدًّا لغاسلي العقول، تستمر في كونها واسعة الانتشار وسمة ضرورية للمجتمعات عبر العالم.

الطاعة للسلطة مغروسة (وأستعير من لويس ألثوسير Louis Althusser، كما فعلت في الفصل السابق) بوساطة مجموعة واسعة من أجهزة الدولة الفكرية المذهبية والقمعية، من ضمنها وسائل الإعلام، والمؤسسات الدينية والسياسية، والتعليم وأنظمة العدالة الجنائية.

ولما كانت الطاعة أساسية للحفاظ على المذاهب الفكرية جميعها، فإنه يمكن أن ينظر إليها على أنها (ما وراء المذهبية الفكرية)؛ أي إنها أعلى وأبعد من أي مذهب فكري معين. تُكافأ المطاوعة، وكثيرًا ما يكون ذلك بالترقية إلى رتبة أعلى في النظام الاجتماعي، «مما يحقق في آن واحد تحفيز الشخص وإدامة الكيان»، والمعارضة مرفوضة وربما تُعاقب. لاحظ ميلغرام Milgram أنه إذا كنا سنطيع فيجب علينا أن نعُدَّ السلطة شرعية وثيقة: هذه أحكام تعتمد على السياق، وأوامر السلطة هي أيضًا تعتمد على السياق، «وهكذا، ففي الحالة العسكرية يستطيع النقيب أن يأمر مرؤوسًا بتنفيذ عمل خطِر جدًّا، لكنه لا يستطيع أن يأمره بتوزيع نقوده». وفي نهاية المطاف ستكون السلطة مقبولة فقط إذا قُبل «التبرير الفكري المذهبي الشامل» (بالنسبة إلى تجارب مليغرام Milgram فوجهة النظر بأن العلم (مشروع اجتماعي شرعي)). وهكذا، فالطاعة للسلطة ليست طاعة عمياء: إنها تعتمد بصورة كبيرة على السياق النفسي والاجتماعي ومعتقدات الشخص المعني.

يلخص ميلغرام Milgram عمله بوضع قائمة بعدد من الموضوعات المتكررة التي تميز (الحالة العاملية) للشخص المطيع. الأول هو الميل إلى التركيز في التفاصيل الإدارية والفنية بدلًا من الصورة الكبرى، أو وجهة نظر أخلاقية، فتصبح الأخلاقية متمركزة حول الطاعة التي تعرَّف بأنها جيدة بحد ذاتها، ويميل الفرد إلى إضفاء قيمة عالية على الانضباط، والواجب، والولاء، والتنافس، وهذه الفضائل «ببساطة هي الشروط الفنية للحفاظ على النظام الأكبر»، وتتغير اللغة؛ فتخفي العبارات المنمقة للتأثيرات الأخلاقية للأفعال. وتنتشر المسؤوليات صعودًا في التسلسل الهرمي، وكثيرًا ما تقسِّم المنظمات مكونات الأفعال المشكوك فيها أخلاقيًّا بين الأفراد؛ فقد حرص النازيون على أن يكون الرجال الذين يختارون ضحايا معسكر الموت بعيدين كل البعد عن أولئك الذين يشغِّلون غرف الغاز. يميل الناس إلى أن يعاملوا على أنهم وسائل لتحقيق الغاية، وهي خطوة يسوغها إرضاء (بعض الأهداف المذهبية الفكرية السامية)، ولا تُشجِّع المعارضة ولا حتى التعليق.

هل يبدو الأمر مألوفًا؟ تحاكي هذه الموضوعات مناقشة روبرت ليفتون Robert Lifton للشمولية (انظر الجدول 1، صفحة 35): تحميل اللغة بالعبارات المنمقة، وأصالة العقيدة على الفرد مع قمع استقلالية الفرد لمصلحة النظام، والعلم المقدس للمذهب الفكري، والقبول دون مناقشة، وسلب الوجود حيث يمكن إعطاء صدمات كهربائية قاتلة (على ما يبدو) لغرباء أبرياء. يبدو أن (الحالة العاملية) التي حرضتها طاعة السلطة الشرعية الوثيقة، عامل مسهِّل للفاعلية الشمولية. بعبارة أخرى، ليست الشمولية انحرافًا غريبًا، بل إنها خطر مستمر ينشأ من الآليات النفسية نفسها التي تسمح لنا بإنشاء مجتمعات بالأساس. على حد سواء، يقود تطبيق هذا الاستنتاج على الموضوع المركزي لهذا الفصل إلى الحكم الآتي: بالقدر الذي يعتمد فيه المتخصصون بالصحة العقلية على السلطة لتقديم تأثيرهم، يكونون عرضة لخطر التفكير الشمولي؛ عملهم هو تغيير العقول، فهل هم بذلك عرضة لتهمة غسيل الدماغ؟

الشمولية وغسيل الدماغ

الخوف من غسيل الدماغ هو الخوف من فقدان السيطرة، بل ومن فقدان المرء لهويته نفسها، ويعبر عن هذا الخوف بطرائق مختلفة في كل من مجالات حياة الإنسان التي يُزعَم فيها حصول غسيل الدماغ. قدَّمت الثقافة الغربية نصبًا رمزية: المرشح المنشوري (سياسية)، أربع وثمانون وتسع مئة وألف (وسائل إعلام)، عالم شجاع جديد (دوائية)، والجدار لبينك فلويد Pink Floyd (تعليمية). تقدِّم مهن الصحة العقلية، بما تشمله من التسميات، والتحكم، وشفاء المنحرفين، نصبًا رمزيًّا آخر: فيلم ستانلي كوبريك Stanley Kubrick المبدع من رواية أنتوني برجس Anthony Burgess برتقالة آلية، الذي يعذَّب فيه البطل الشاب العنيف بالمعالجة المقيتة. كما رأينا سابقًا، حاججت الحركة المضادة للطب النفسي في الستينيات والسبعينيات بأن الطب النفسي المؤسسي كان على أقل تقدير شموليًّا: ليس فقط أنه خدم في نشر المذهب الفكري لمن هم في السلطة والحفاظ عليه، بل إنه فعل ذلك بأساليب قمعية تتسم بالشراسة، هل هذا حق؟

يحاجج روبن دوز Robin Dawes، مثل آخرين قبله، أن مهن الصحة العقلية تعتمد اعتمادًا زائدًا على قوة السلطة، وهذا مع ولعنا بتحديد المجموعات الداخلية والخارجية، يمكن أن ينتج قوة اجتماعية سامة حقًّا، لكن قد يكون ذلك نتيجة طبيعية لطبيعة الإنسان أكثر من كونه حقيقة مبرمة عن الطب النفسي والعلاج النفسي. تستثنى المعالجة الخاصة التي يحصل عليها المريض

ملء إرادته مقابل أجر من انتقادات توماس زاز Thomas Szasz: فقط عندما يتأصل الإكراه فإنه يقرع ناقوس الخطر، يمكن أن يبدو الطب النفسي المؤسسي بأنه ذو سمات شمولية، ولكن مرة أخرى، الشمولية هي مسألة تتعلق بالدرجة، وليس بتصنيفها بنعم أو لا. ومهن الصحة النفسية هي حزمة متفاوتة على نطاق واسع، تمتد من العلاج الخفيف على المدى القصير بالمواد الكيميائية أو من دونها، وصولًا إلى الإدخال في المصحات والجراحة القسرية، لا يمكن أن يجادل أحد ببساطة أن جميع العلاجات شمولية؛ بعضها أكثر شمولية من الآخر.

فيما يتعلق بالتعليم، فقد حاججت في الفصل الثالث أنه على الرغم من أن الواقع يعجز غالبًا عن تحقيق الوضع المثالي، فإن الوضع المثالي في التعليم هو المضاد للشمولية: يسعى إلى زيادة الاستقلالية الشخصية والحرية الفكرية وليس إلى تقليلها. يجري عالم النفس روبرت ليفتون Robert Lifton في كتابه **إصلاح التفكير وعلم نفس الشمولية** مناقشة مماثلة حول العلاج النفسي، في حين يعترف أن «التحليل النفسي، في جوانبه التنظيمية- مثل أي حركة ثورية سواء أكانت علمية، أم سياسية، أم دينية- قد وجد صعوبة في الحفاظ على روحه التحررية الأولية»، ويحاجج بأن «روح التحليل النفسي والعلاجات النفسية المستمدة منه تعارض مباشرة روح الشمولية. وفي الواقع، فإن بحوثها المضنية، والمتعاطفة مع عقول الإنسان منفردة، قد وضعتها ضمن التراث المباشر للتيارات الفكرية الغربية التي قامت تاريخيًّا أكثر من غيرها بمواجهة الشمولية مثل: الإنسانية، والفردية، والبحث العلمي الحر». تشديد العلاج النفسي على فردية الإنسان هو بالتأكيد مناقض تمامًا للتعميمات النمطية التي يوظفها التفكير الشمولي.

بالتأكيد، من الصعوبة بمكان التفكير بهذه الطريقة بصورة مستمرة؛ فالقوالب النمطية، على كل حال، وجدت لتجعل حياة أدمغتنا أسهل؛ لذا فليس من المستغرب أن يعجز المعالجون النفسيون، مثل التربويين، في تحقيق مثلهم العليا.

تقدم تقنية العلاج السلوكي المعرفي (Cognitive Behavioral Therapy (CBT مثالًا أحدث من التحليل النفسي، وهي طريقة تهدف إلى تعليم المريض طرائق فعالة في فحص الأفكار غير المرغوب فيها وتغييرها، مثل (الأفكار التلقائية) التي تصيب الأشخاص الذين يعانون الاكتئاب. هذه الأفكار، التي سميت بهذا الاسم لأنها تبدو وكأنها تقفز فجأة إلى العقل، في غالبيتها الساحقة سلبية، تبدي الشعور بالذنب، واللاأهمية، وكراهية الذات، بل والانتحار. تساعد طريقة العلاج السلوكي المعرفي المريض على التوقف والتفكير، فعوضًا عن قبول الأفكار السلبية دون نزاع (ومن ثم تركها تؤثر في المزاج والسلوك) يتعلم المريض أن يعدها مظهرًا من مظاهر الاكتئاب

لا يتعين أخذها بالجدية نفسها للأفكار (الطبيعية)، وهكذا فإن تأثيراتها في المزاج والسلوك يمكن أن تُقلَّل بصورة تدريجية. كما سنرى لاحقًا، فإن القدرة على الوقوف والتفكير تميز جميع (التيارات الفكرية) المضادة للشمولية وتميز المعارضة لأنظمة الحكم الشمولية؛ يهدف العلاج السلوكي المعرفي إلى تعزيز هذه القدرة، ومن ثم دعم إحساس المريض بالتحكم.

الخلاصة والاستنتاجات

تحدثنا مهن الصحة العقلية عما نحاول تجاهله: الهشاشة المخيفة لتراكم الأفكار الملتحمة الذي نسميه الذات. إن قوة المخاوف التي تثيرها تفسر لماذا جوبهت تهمة غسيل الدماغ بتلك الشراسة على أرض المعركة هذه. ولكن غسيل الدماغ- كما رأينا في الفصل الأول- له مظاهر عديدة بوصفه آلية، أو رمزًا، أو مفهوم الملاذ الخير، وقد رأينا في هذا الفصل أنه فيما يتعلق بمهن الصحة العقلية، فقد وضح علم النفس الاجتماعي الشيء الكثير، مقوضًا الحاجة إلى مفهوم الملاذ الأخير. إنَّ فهمنا أكثر لأسلحة التأثير، خاصة السلطة، وللظواهر النفسية الاجتماعية مثل انتشار المسؤولية، يعني أننا نستطيع أن نستبدل بعملية غسيل الدماغ السحرية مجموعةً من مفاهيم أكثر علمية، تحمل -وإن كانت لا تزال غير مفهومة بالكامل- قوة تفسيرية وتنبؤيه كبيرة.

لكن فهم غسيل الدماغ هو أكثر من مجرد تفسير عقلاني. لم يكن الرعب في لب برتقالة آلية ناجمًا عن العنف المجمَّل جدًّا الذي تمارسه العصابات، بل عمَّا تعرض له أحدهم باسم المعالجة. نحن لا نفهم أنفسنا، وكلما قل فهمنا ازداد خوفنا من قدرتنا على الحفاظ على حريتنا في مواجهة أولئك الذين قد يسعون إلى الحد منها. يرمز غسيل الدماغ إلى عجزنا في عالم عقولنا التي نعتز بها، إنه يهاجم شعورنا أن الذوات فوق كل شيء آخر مقدسة، ويهاجم أدمغتنا التي هي المكان الوحيد الذي نستطيع أن نرقد فيه بسلام، إنه يمثل الرهبة التي تعترينا جميعًا من التصرف دون أسلوب أو دون سيطرة، أو من الاستيقاظ لنجد أننا فعلنا شيئًا مروعًا، مثلما استيقظ الألمان المخلصون بعد كابوس النازية. يمثل غسيل الدماغ الجانب المظلم من الطاعة، وبينما تستمر مهن الصحة النفسية بالاعتماد بصورة كبيرة جدًّا على السلطة فلا يمكن أن يهدئ الخوف من غسيل الدماغ. وبالفعل، ربما يكون من الأفضل عدم استبعاد هذا الخوف: إنه يؤدي إلى تشكيك صحي يشجعنا على مساءلة السلطة، وتقليل استخدام القوة في الطب النفسي ومساءلة الحوافز والأساليب عندما تستخدم القوة، وتقييد المساعدة بأولئك الذين يريدونها أو يحتاجونها،

وترك البقية للقوانين التي تربطنا جميعًا. وبقدر ما يساعدنا الطب النفسي والعلاجات النفسية على زيادة فهمنا لأنفسنا، فَهُما مضادان للشمولية، وأعتقد أن هذه الروح التحررية حافز صادق لعديد من ممارسيهما. كما في التعليم الذي يشترك في العديد من الأهداف نفسها، فإن المثل العليا للعلاج العقلي نبيلة، على الرغم من أن الواقع قد يخفق في مجاراتها.

obeikan.com